# (١٣)

# التوبة إلى الله[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

**محطات سابقة :**

لا زال حديثنا موصولاً عن تزكية الأنفس ، تزكيتها بالإيمان والاستقامة ، وعمل الصالحات ، واجتناب السيئات .

تزكيتها بتقوى الله تبارك وتعالى حتى تتأهل لمجاورة الله تعالى في ﴿ جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) .

تحدثنا عن هذه التزكية ، وأن هذه التزكية محطات . أول محطة فيها : محطة العلم ، لكي تسلك الطريق إلى الله ؛ لا بد أن تسلكه على بصيرة ، وعن بينة ومعرفة ، لا يقبل الله تعالى من يخلط في طريقه ؛ لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الهدى من الضلال ، ولا الحلال من الحرام ، ولا الرشد من الغي .

لا بد أن تسلك طريقك على بيّنة ، ولهذا كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة[٢] . قبل كل شيء لا بد أن تتفقه في دينك ، لا بد أن تتعلم ، أن

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة١١ من ربيع الأول ١٤٢٥ هـ الموافق : ٣٠ أبريل ٢٠٠٤م . وللمزيد راجع كتابنا : (التوبة إلى الله) ضمن سلسلة : تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة ، نشر مكتبة وهبة القاهرة .

(٢) رواه ابن ماجه عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وقد سبق تخريجه .

تعرف الرب الذي تعبده . كيف تعبد رباً لا تعرفه ؟ ! لعلك تعبد صنماً وأنت لا تدري ، لعلك تعبد عدماً وأنت لا تدري ، اعرف ربك ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ (محمد:١٩)، ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٩٨) ، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٣٥)

## تعرّف على ربك وصفاته من خلال كتابه وسنة نبيه :

اعرف ربك ، اعرفه بصفاته وأسمائه الحسنى ، لترجوه وتخافه ، لتحذر منه وتكون راجياً لرحمته أيضاً ، وهذا المطلوب من كل مسلم ؛ أن يعرف أول ما يعرف ربه ، ويصحح عقيدته ، ويعرف ما يجوز على ربه ، وما يستحيل عليه .

تَعرف على الله ؛ وذلك من كتاب ربك ، ومن سنة نبيك ﷺ . إذا عرفت الله ؛ عليك أن تعرف ما يرضيه وما يسخطه ، لتعمل على مرضاته ، وتتجنب ما يسخطه عز وجل ، وبذلك تقترب منه سبحانه وتعالى ، وتبتعد عن النار وتقترب من الجنة ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) .

لا بد أن تتفقه وتعلم ماذا يجب عليك لربك؟ ماذا يجب عليك من فرائض فتؤديها؟ ماذا هناك من مستحبات فتحرص على تحصيلها ما استطعت ؟ وإن لم تكن فرضاً ، تعرف الحرام فتتجنبه ، تعرف الشبهات فتتقيها ، استبراء لدينك وعرضك ، «فإن من وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»[1] .

---

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير ، وقد سبق تخريجه .

اعرف الحرام ، اعرف الكبائر من الصغائر . اعرف الحرام المقطوع من المشتبه فيه ، واعرف المكروه من غير المكروه . أما الحرام فتجنبه أبداً ، وأما المكروه فاحرص على أن تبتعد عنه ، وإن لم يكن لازماً مثل لزوم اجتناب الحرام .

## اطلب العلم من المهد إلى اللحد :

لا بد أن تعرف العبادات والفرائض المطلوبة منك . هذه محطة العلم ؛ وهي محطة دائمة ، ليس العلم مطلوباً في وقت من الأوقات ، ثم تقول : تعلمت كل شيء ، الله تعالى قال لرسوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه:١١٤) ، ازدد علما لتزداد هدى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد:١٧) .

اطلب العلم من المهد إلى اللحد[١] . لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم ؛ فإذا ظن أنه علم فقد جهل . إذا قال : قد عرفت كل شيء ، فهذا هو دلالة جهله ، لأن العلم لا يحيط به أحد ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥) . فاطلب العلم باستمرار ، ولا تستح أن تطلب العلم ممن كان أصغر منك ، فقد تعلم ابن آدم من الغراب ، وتعلم سليمان من الهدهد . اطلب العلم ولا تستح أن تطلبه من أي إنسان كان ، «الحكمة ضالة المؤمن»[٢] ، قد تعلم سيدنا أبو هريرة من الشيطان ، من إبليس ، علمه آية الكرسي ، وذكر أبو هريرة ذلك للنبي فقال :«صدقك وهو كذوب»[٣] ، ما علّمك هو حق فعلاً ، وإن كان هو كذاب ، ولكنه صادق في هذه القضية .

---

(١) يشتهر هذا القول عند الكثيرين من الناس ، وينسبه البعض إلى النبي ﷺ ، وشيخنا حفظه الله نوّه كثيرا على أنه ليس بحديث ، وإنما يستشهد به دائما على أنه حكمة تدعو إلى طلب العلم من الصغر حتى الممات. وعادة ما يستشهد الشيخ بكلام الإمام أحمد (مع المحبرة إلى المقبرة).

(٢) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧) وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩) عن أبي هريرة ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦). ولكن معناه صحيح بالإجماع .

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٥) والنسائي في «السنن الكبرى» في عمل اليوم والليلة (١٠٧٢٩) وابن خزيمة في صحيحه كتاب الزكاة (٢٤٢٤) عن أبي هريرة.

تعلم ما استطعت . خذ العلم من أي وعاء خرج ، وأضف إلى علمك جديداً باستمرار ، هكذا ينبغي للإنسان أن يستمر في تعلمه عن طريق القراءة ، اختر كُتُبَ العلماء الثقات ، واقرأها واحرص على قراءتها ، واستمع إلى دروس العلماء ، دروس العلماء موجودة في المساجد ، وموجودة على الأشرطة ، وموجودة في الإذاعات ، وموجودة في الفضائيات .

احرص على أن تتعلم ، ولا تكن أسيراً لأحد ، خذ الأشياء وزنها بمنطقك العقلي الشرعي ، هل تتفق مع قواعد الشرع ومع مقاصده؟ ومع القواطع من كتاب الله وسنة رسول الله؟ وما اشتبهت فيه واشتبه عليك فاسأل عنه عالماً ثقة . ليس هناك في العلم كبير ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) . فإذا عرفت هذا ؛ فعليك أن تنتقل إلى المحطة الثانية .

**الجهل المركب : ألا يعلم الجاهل أنه جاهل :**

اخرج من محطة الجهل .

كان سهل بن عبد الله التستري ـ وهو أحد رجال التربية والسلوك الكبار ـ كان يقول : ما عصي الله بمعصية أشد من الجهل . قيل له : يا أبا عبد الله! وهل هناك معصية أخرى أشد من الجهل قال : نعم الجهل بالجهل[1]. أن يجهل ويجهل أنه يجهل . يسمونه : بالجهل المركّب ، هو جاهل ولا يعلم أنه جاهل ؛ بل يخيل إليه أنه عالم ، وأنه شيخ العارفين ، وهذه هي المصيبة الكبرى ، الجهل بالجهل ، وهؤلاء أشبه بالمنافقين الذين ذكرهم الله في سورة البقرة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٣) ، هؤلاء هم السفهاء والجهلاء والأغبياء حقا ، ولكن لا يعلمون . هذا هو الجهل بالجهل .

---

(١) القصة ذكرها الغزالي في الإحياء ، كتاب العلم (١/ ٨٢) .

## نظّف نفسك بالتوبة :

اعلم أولا ؛ ابدأ بهذه المحطة واستمر عليها ، اطلب العلم باستمرار . ثم هناك محطة بعد هذه المحطة ، هي محطة التوبة إلى الله ، لكي تبدأ الطريق على سلامة واستقامة ، فابدأه بتوبة نصوح ، إذا أردت أن تبني بناء متيناً فلا بد أن تزيل الأنقاض ، وأن يكون بناؤك على أساس سليم ، لكي تستمر في طريق الحق والخير والطاعة ؛ لا بد أن تتطهر ، لا بد أن تغسل نفسك حتى تلبس ثيابك على طهارة ونظافة . كذلك إذا أردت المسير في طريق الله ، تسير في طريق نظيف ، نظّف طريقك ، وإنما تنظيف الطريق بالتوبة .

## ما معنى التوبة[1]؟

كلمة التوبة معناها الرجعة ، الرجوع ، العودة ، وكأن الأصل في الإنسان أن يكون مع الله ، وأن يكون بين يدي الله ، وأن يكون في حضانة الله ، فإذا أَبْعَدَتْه المعصية عن الله فلا بد أن يرجع إلى أصله ، لا بد أن يرجع إلى ربه . إذا شرد الشاردون ، وغفل الغافلون ، وبَعدَ البعداء ؛ عن الله عز وجل ، جاءت التوبة تردهم إلى الله . ارجع إلى دارك ، ارجع إلى مأواك ، ارجع إلى منزلك الأصلي . منزلك الأصلي عند الله وليس عند الشيطان . إذا اختطفك الشيطان يوماً من الأيام فحاول أن تتخلص منه ، وأن تتحرر من إساره ، وأن تعود إلى منزلك الأصلي عند ربك . هذا معنى التوبة إلى الله .

المعاصي والذنوب والشرور والسيئات ، تأخذك من الله ، تخطفك من الله ، وتبعدك عن الطريق ، تبعدك عن منزلك ، عن أهلك ، بعيداً بعيداً . التوبة رجوع ، رجوع إلى الله ، ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (التحريم:٨) .

---

(١) راجع : لسان العرب ، ج١/ ٢٣٣.

**التوبة إلى الله وليست لأحد من خلقه :**

التوبة في الإسلام إلى الله ؛ ليست إلى أحد من الناس ، ليست إلى شيخ ، ولا إلى كاهن ، ولا إلى قسيس تجلس بين يديه على كرسي الاعتراف ، وتكشف نفسك ، وتشرح نفسك أمام هذا المخلوق ، وتنبئ عما في ضميرك ، وعما تخبئه نفسك ، وعما فعلت من خطايا لا يعلمها إلاّ الله ، ليس مطلوباً هذا في الإسلام ، ليس من حق مخلوق أن يكشف عن خبايا المخلوق ، « كل أمتي معافى إلا المجاهرين »[1] .

إذا كنت قد فعلت ذنباً وستره الله عليك ؛ فلا تكشفه لأحد ، تُب فيما بينك وبين ربك ، واستغفر الله عز وجل ، ولست مطالباً أبداً بأن تقف أمام أحد ، وتقول له : فعلت كذا ، وفعلت كذا ، وفعلت كذا ، كما يحدث في بعض الأديان . لا . التوبة عندنا توبة إلى الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ (التحريم:٨) ، (إِلَى اللَّهِ) ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١) انظروا إلى هذا الأمر : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ عسى أن تحصل الفلاح ، أن تنجو مما تكره ، وأن تظفر بما تحب .

وما الذي يكرهه الإنسان ؟ دخول النار . وما الذي يحبه الإنسان؟ دخول الجنة ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) ، فمن أراد النجاة من النار ، والفوز بالجنة : فعليه بالتوبة ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

**الخطر : أن تعتقد أنك مطهر من الذنوب :**

لا تقل : مم أتوب؟! الحمد لله أنا بخير . أصلي الصلوات الخمس ، وأؤدي الزكاة ، وأصوم رمضان ، وأحج البيت ، ما عندي ذنوب أتوب منها .

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ومسلم في الزهد (٢٩٩٠) والبيهقي في الكبرى كتاب الأشربة (١٧٣٧٧) عن أبي هريرة ، وهذا نص البخاري.

هذا أول الخطر ، أن تعتقد أنك مطهر من الخطايا ، سليم من الذنوب ، هذا هو الغرور بعينه ، نعم هذا هو الغرور . إذا كان محمد ﷺ ، سيد البشر ، وصفوة الله من خلقه الذي أنزل عليه خاتم كتبه ، وجعله آخر رسله ، وبعثه بالبينات ، وجعله رحمة للعالمين ، محمد عليه الصلاة والسلام ؛ الذي لم يكن يغفل عن ربه طرفة عين ، وكانت تنام عيناه وقلبه لا ينام[1] ، الذي جاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين . محمد ﷺ يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة[2] » .

يا عجباً! محمد عليه الصلاة والسلام يتوب في اليوم مئة مرة ؛ فكيف لا نتوب نحن؟ قال بعض الصحابة[3] : إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة : « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم »[4] ، يتأول القرآن . أي يتأول قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر: ١-٣) .

---

(١) رواه البخاري في الوضوء ( ١٣٨ ) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٣) عن ابن عباس ، وفيه : أنه بات عند خالته ميمونة ، فقام رسول الله ﷺ من الليل فتوضأ من شن معلق وضوءا خفيفا ، قال ابن عباس : فقمت فصنعت مثل ما صنع النبي ﷺ ، ثم جئت فقمت عن يساره فأخلفني ، فجعلني عن يمينه ، فصلى ثم اضطجع ، فنام حتى نفخ ، ثم أتاه بلال ، فآذنه بالصلاة ، فخرج فصلى الصبح ولم يتوضأ ، قال سفيان : وهذا للنبي ﷺ خاصة ، لأنه بلغنا : أن النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) وأحمد في المسند (١٧٨٤٧) والترمذي في سجود القرآن (١٥١٥) وابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق (٩٣١) والطبراني في الكبير (١/ ٣٠٢) عن الأغر المزني.

(٣) هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨١٤) وأبو داود في الصلاة (١٥١٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤) والنسائي في « الكبرى » في عمل اليوم والليلة (١٠٢١٩) .

## استغفارات الأنبياء في القرآن :

هكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام . والأنبياء جميعاً استغفروا الله ، رويت عنهم استغفارات . ابتداء من آدم حينما قال هو وزوجه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) .

وجاء عن سيدنا نوح ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧) .

وإبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤١) .

سيدنا موسى عليه السلام حينما وَكَزَ الرجلَ فقتله خطأ قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (القصص:١٦) .

كل الأنبياء طلبوا المغفرة ، والرسول عليه الصلاة والسلام وردت عنه صيغ كثيرة لطلب المغفرة ؛ لم ترد عن نبي من الأنبياء ، وأعظمها الصيغة التي سماها الرسول : سيد الاستغفار ؛ أن تقول : « اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[1] .

هكذا علمنا النبي ﷺ أن نقول بهذه الصيغة ، التي تعتبر سيدة صيغ الاستغفار.

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٣) وأحمد في المسند (١٧١١١) والترمذي في الدعوات (٣٣٩٣) والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب عمل اليوم والليلة (٩٧٦٣) وفي «المجتبى» كتاب الاستعاذة من شر ما صنع (٥٥٢٢) وابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق (٩٣٢) والحاكم في مستدركه كتاب التفسير (٢/ ٤٩٦ ) عن شداد بن أوس .

## كلنا معرضون للذنوب ومأمورون بالتوبة :

هكذا ينبغي أن نسأل الله عز وجل ، فربما كانت هناك خطايا لا نعلمها ، كان عليه الصلاة والسلام يقول :« اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير »[1] .

## إياك واستصغار الذنب :

هكذا كان محمد ﷺ ، فلا تدّعي أيها المسلم أنك مطهر من كل ذنب ، وأنك لا تحتاج إلى توبة ، هذا الشعور نفسه ذنب يحتاج إلى توبة . كم من الذنوب ترتكبها كل يوم؟ كم من نظرة عين لا تحل لك؟ كم من كلمة تقولها وأنت لا تدري أنها خطيئة؟

إحدى زوجات النبي ﷺ قالت له يوما : وما يعجبك يا رسول الله مِنْ فلانة؟! وهي ـ وأشارت بيدها تعني قصيرة ، (إيه اللي عاجبك فيها هذه القصيرة) ، فقال لها :« يا عائشة لقد قلتِ كلمة ؛ لو مزجت بماء البحر لمزجته »[2] ، قلتِ كلمة ؛ حقرت ضرتك ، وصاحبتك ، لو مزجت بماء البحر لمزجته . كلمة تعكر ماء البحر ، وهي لم تقل سوى نصف جملة ؛ فقالت : وهي ، ثم أشارت بيدها ، بمعنى قصيرة . هذه صفية بنت حيي « يا عائشة لقد قلت كلمة ؛ لو مزجت بماء البحر لمزجته » .

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩) عن أبي موسى .

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٥) والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٣٤) وبقية الحديث : أن عائشة قالت : وحكيت له إنسانا قال : « ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا ».

كم من الكلمات يقولها الناس في كل يوم عشرات المرات وهم لا يدرون؟ لأن هذه الكلمات أصبحت سهلة على الألسن ، يخرجها الناس دون أن يحسوا بأنها تُعَكر بحراً أو بحوراً ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى لها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار »[1]، سبعين خريفا من كلمة لا يُلْقِي لها بالا ، لا يهتم بها .

## لا تقعد في مجلس يُعصى الله فيه :

وليس من الضروري أن تقول الكلمة ؛ قد يقولها إنسان في مجلس ، وأنت تسمعها ، والسامع شريك المغتاب ، السامع شريك المتكلم ، إذا جلست في مجلس فيه غيبة ، وفيه نميمة ، وفيه سب ، وفيه شتم ، فأنت شريك أهله . أنت شريك أهله ، الله تعالى يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٤٠) .

ما دمتم شركاء في المجلس ، فأنتم إذن مثلهم إلى هذا الحد!

## التوبة فريضة على كل الناس .

التوبة أيها الإخوة فريضة ، قال سهل بن عبد الله : من قال بأن التوبة ليست بفرض على كل مسلم ، فهو كافر ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الحجرات: ١١) حينما ذكر القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ

---

(١) رواه أحمد (٧٩٥٨) عن أبي هريرة ، وقال مخرّجوه : صحيح وهذا إسناد حسن ، ورواه الترمذي في الزهد (٢٣١٤) وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، ورواه الحاكم في مستدركه كتاب الأهوال (٤/٦٤٠) وقال صحيح على شرط مسلم ، وصححه الذهبي. ورواه البخاري بدون ذكر السبعين خريفا :« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ؛ لا يلقي لها بالا ، يرفع الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ؛ لا يلقي لها بالا ، يهوي بها في جهنم » أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٨).

قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الحجرات:١١) .

ماذا تكره من الناس؟ وكم تحقد على فلان؟ وكم في قلبك من كبر وغل وحسد؟ وكم تقسو على عباد الله الضعفاء وتظلمهم ؛ وأنت لا تدري؟ كم يصدر منك من ظلم للآخرين؟

فلا تظن أيها الأخ المسلم ؛ أيتها الأخت المسلمة ؛ لا تظن بأنك بمنأى عن الذنوب والمعاصي ، كلنا معرضون للذنوب ، لو أن إنساناً أمسك بكشكول ، أو دفتر ، أو سجل ، وحاول أن يسجل سيئاته من أول النهار لآخره ، وكان دقيقاً وأميناً ؛ سيسجل آلاف المعاصي ـ إذا كان يقظاً ـ المعاصي كثيرة جداً ، معاصي العين ، ومعاصي اللسان ، ومعاصي الأذن ، ومعاصي اليد ، ومعاصي الرجل ، ومعاصي البطن ، ومعاصي القلوب . . . .

**توبة من الشرك :**

هناك توبة من الشرك والكفر والعياذ بالله ، كما قال الله تعالى عن المشركين(فَإِنْ تَابُوا ـ أي تابوا عن الشرك ـ ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:٥) ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:١١) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال:٣٨) . كل الذنوب تغفر بالتوبة ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) .

حتى الكفر ؛ بالتوبة يَذْهَب الكفر ، ويُمحى الكفر ، التوبة تجُبُّ ما قبلها ، والدخول في الإسلام هو توبة من الشرك[1] . هناك توبة من الشرك والكفر .

**توبة من النفاق :**

هناك توبة من النفاق قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١٤٥،١٤٦) . هؤلاء المنافقون الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، إذا تابوا وأصلحوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين . التوبة مفتوحة للمنافقين كما هي مفتوحة للمشركين .

**التوبة من الكبائر :**

التوبة مفتوحة لأصحاب الكبائر ، قال الله تعالى في وصف عباد الرحمن ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ـ من يشرك بالله أو يقتل نفسا أو يزني من يفعل ذلك يلق أثاما ـ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:٦٨-٧٠) .

---

(١) يشير الشيخ إلى حديث عمرو بن العاص ، وفيه : لما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ابسط يمينك لأبايعك. فبسط يده. فقبضت يدي ، فقال : ما لك يا عمرو؟ قال : أردت أن أشترط. قال : تشترط ماذا؟ قال : أن يغفر لي. قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ رواه مسلم في الإيمان (١٢١) عن عبد الله بن عمرو. وعند أحمد بلفظ :« يا عمرو أما علمت أن الهجرة تجب ما قبلها من الذنوب ، يا عمرو! أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله من الذنوب» رواه أحمد في المسند (١٧٨٢٧) وقال مخرّجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، ورواه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٢٣).

التوبة تَجُبُّ الكبائر ، كما تَجُبُّ الشرك ، كما تَجُبُّ النفاق ، و « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

**التوبة من الصغائر :**

والتوبة كما تكون من الكبائر ؛ تكون من الصغائر ، من ارتكب صغيرة من الصغائر عليه أن يتوب إلى الله ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود: ١١٤) ، تُب من الحرام كله ، الكبائر والصغائر والشبهات فتب منها ، تطهر ؛ ادخل على الله طاهرا ، اغسل نفسك من الذنوب الماضية .

كل الذنوب قابلة للمغفرة بالتوبة ، ليس هناك ذنب مهما عَظُم أكبر من عفو الله . عفو الله أكبر من كل الذنوب ، وأعظم من كل الخطايا .

**الفقيه الحقيقي من لا يُقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله :**

لا تيأس من روح الله عز وجل . إياك أن ييئسك بعض العلماء ويقول لك : هذا ذنب لا توبة منه . فلا يقول هذا عالم أبداً ، وقد قال سيدنا علي ﷺ: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟! من لم يوئس عباد الله من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكره[2] . الفقيه حقاً هو الذي يقف هذا الموقف الوسط ، وينهج المنهج الوسط ، لا يوئِس الناس من روح الله ، لا يذكر المرهبات والمخوفات ، حتى ييأس الناس من رَوح الله عز وجل ، كما يفعل كثير من الوعاظ ؛ حين يتحدثون عن النار وعن عذاب القبر ، بحيث يخوف الناس فييأسوا من روح الله .

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠) والطبراني في الكبير (١٠/١٥٠) والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٠/١٥٤) عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه (١٠/٣٣٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٧).

(٢) انظر : شرح نهج البلاغة ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٨/ ٢٤٣، ط : دار إحياء الكتب العربية.

وليس الفقيه أيضاً هو الذي يفتح للناس الأبواب ، أبواب الترجية حتى يأمنوا من مكر الله . المؤمن حقا : هو المتوازن في رجائه وخوفه ، في حذره وأمله ، ﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٩) ، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (الإسراء:٥٧) ، ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٤٩،٥٠) .

**توبة الخواص من الغفلات :**

على الإنسان أن يتوب ، وأن يسارع بالتوبة ، إما أن يتوب من الذنوب ، أو يتوب من الغفلات . قالوا : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلات . الخواص حينما يشعر أحدهم بأن قلبه قد قسا ، وأن عينه قد جمدت ، فلم يعد قلبه يخشع ، ولم تعد عينه تدمع ، وأصبح يسمع القرآن فلا يلين له قلبه ، ولا تبك له عين ؛ هنالك يشعر أن هناك غفلة قد أصابته ، وهنالك يسارع بالتوبة . هؤلاء الناس ؛ الأيقاظ بقلوبهم ، الحرّاص على بواطنهم ، لا يريدون لباطنهم أن يخرب ، وهم لا يدرون وهم عنه غافلون ، كثير من الناس تخرب أفئدتهم ، تخرب بواطنهم بالغفلة عن الله عز وجل ، بنسيان الآخرة ، يعيش في الدنيا كأنه مخلد ، لا يذكر الموت ، ولا يذكر القبر ، ولا يذكر الجنة والنار .

هذه الغفلة ـ أيها الإخوة ـ هي داء وبيل ، كثير من الناس يحتاجون إلى التوبة من هذه الغفلة ، هو لم يشرب خمراً ، ولم يزن ، ولم يفعل معصية ، ولكنه أصيب بهذه الغفلة ، وكلنا نصاب بهذه الغفلة .

مَنْ منا يشعر بيقظة القلب كما كان يشعر بها أولئك المؤمنون الجدد؟! مرّ أبو بكر ﷺ بجماعة أسلموا جديداً فكانوا يقرأون القرآن ، وأعينهم تذرف الدمع ، فقال أبو بكر الصديق ﷺ : هكذا كنا حتى قست القلوب[1] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٢٤) ، وذكر أن أبا بكر قال ذلك عندما رأى بكاء وفد من أهل اليمن .

انظروا: سيد الأمة بعد رسول الله أبو بكر، ينظر إلى هؤلاء المؤمنين الجدد؛ الذين رقت قلوبهم، وذرفت أعينهم الدموع حينما تلوا القرآن، يقول: هكذا كنا حتى قست القلوب. كنا مثل هؤلاء إذا قرأنا القرآن بكينا، الآن أصبحنا نقرأ القرآن ولا نبكي، قست قلوبنا.

إذا كان هذا ما يقوله أبو بكر؛ فماذا نقول نحن عن أنفسنا؟ ماذا يقول الناس في هذه الدنيا؟ وهم غارقون في شهواتها، قَلّما يفكرون في مصيرهم، قَلّما يفكرون في آخرتهم، قَلّما يراجعون رصيدهم، يراجعون حساباتهم ماذا كسبوا وماذا خسروا؟ ماذا قدموا لأنفسهم؟ من منا حاسب نفسه هذا الحساب؟ ماذا قدمت لآخرتك؟

ما أسرع ما نحاسب أنفسنا في أمور الدنيا، كم كسبنا في الشيء الفلاني في شركة الصناعات؟ وفي شركة المواشي، وفي شركة الإجارة، وفي شركة كذا. وكم ثمن البورصة اليوم؟ الناس مشغولون بالدنيا؛ بالأرقام، بالحسابات، ولكنهم ليسوا مشغولين بالآخرة، لم يشغلوا بآخرتهم، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٧)، عندهم علم بظاهر الحياة الدنيا، ربما كان أحدهم يحمل البكالوريوس أو يحمل الدكتوراه، أو يحمل الشهادات العليا الكبرى، ويتبوأ المناصب المرموقة؛ ولكنه لا يعلم الآخرة، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

الغفلة[1] . . . الغفلة عن الآخرة، والغفلة عن الله، والغفلة عن المصير؛ هي التي أوردت الناس المهالك، هي التي جعلت الناس يأكل بعضهم بعضا، يفترس بعضهم بعضا، جعلت القوي يأكل الضعيف، جعلت العالم غابة، لا مكان فيها للضعيف، أو بحراً يأكل فيه السمك الكبير السمك الصغير، هذا

---

(١) للمزيد راجع خطبة: «تحرير النفس من سجن الغفلة» وهي ضمن سلسلة: «تزكية النفوس» من هذا الجزء.

كله نتيجة الغفلة عن الآخرة ، ولا نجاة لهذا أيها الإخوة والأخوات إلا بالتوبة إلى الله ، بالرجوع إلى الله .

الركن الركين ، والحصن الحصين ، والحبل المتين : هو الرجوع إلى الله . ارجع إلى ربك ، استمسك بعروته الوثقى التي لا انفصام لها . تمسك بحبله المتين ، ولا تنفصل عنه أبدا ، ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١)

**السعادة ها هنا :**

ثق أن في هذا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، لا تظن أن سعادة الدنيا في كسب المال وحده ، أو في الأولاد وحدهم ، قد يكون عندك من المال والولد ، وقد يكون لك من المنصب والجاه ، وقد يكون عندك من القصور والمباني ، وقد يكون عندك من الرصيد بالملايين ؛ ولكنك لست سعيداً ، السعادة ها هنا ، السعادة لا تُستورد ، ولا تُشترى من الخارج ، لا تُشترى بالملايين ولا بالمليارات ، كم من أناس عندهم ملايين وعندهم مليارات ؛ . بالأمس قال لي أحد الناس : تعرف فلاناً الذي يملك كذا وكذا ملياراً؟ قلت : نعم . قال إنه مصاب بالاكتئاب ، ملياراته وهي بالعشرات لم تغن عنه شيئاً مصاب بالاكتئاب ، بالهم ، بالغم ، بالقلق ، بالحزن ، باليأس . . . ماذا صنعت ملياراته؟ لم تصنع له شيئاً ، المليارات لا تصنع السعادة ، السعادة إنما تُصْنع من داخل القلب ، السعادة منك من داخلك ، ليست مستوردة من هنا ولا من هناك ، وإنما يَصْنعها الإيمان ، يصنع السعادة الإيمان الحق ، التقوى والاعتصام بالله ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ٤) .

قد تضيق الدنيا عليك وتدلهم من حولك الكروب ، وتتراكم الظلمات عن يمين وشمال ، ولكنك إذا اعتصمت بالله عز وجل ؛ وجدت نوراً في الظلمات ، وجدت روحاً تطمئن إليه ، وجدت السعة بعد الضيق ، وجدت الانشراح والانفراج ، كما رأينا النبي وهو في الغار ، والمشركون قد وصلوا إلى الغار ، وأحاطوا به ، وقال له أبو بكر : يا رسول الله! والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] » ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠)[2] .

هذه السكينة هي سكينة الإيمان ، الإيمان هو المعتصم ، عودوا أيها الإخوة إلى الإيمان ، عودوا إلى ربكم توبوا إلى ربكم ، التوبة .. التوبة ، ارجعوا إلى الله ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) كلاهما في فضائل الصحابة ، ورواه أحمد في المسند (١١) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦) عن أبي بكر الصديق.

(٢) ذكر ما جاء في الآية لم يرد في هذا الحديث ، وإنما في حديث آخر ، وتلاها النبي ﷺ لأبي بكر حينما أدركهم سراقة بن مالك ، كما في حديث البراء ، قال : جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي في منزله فاشترى منه رحلا فقال لعازب : ابعث ابنك يحمله معي. قال : فحملته معه ، وخرج أبي ينتقد ثمنه ، فقال له أبي : يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما حين سريت مع رسول الله ﷺ؟ قال : نعم أسرينا ليلتنا ومن الغد ، حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأت عليه الشمس ، فنزلنا عنده وسويت للنبي ﷺ مكانا بيدي ينام عليه ، وبسطت فيه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام. وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذي أردنا. فقلت : لمن أنت يا غلام؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة. قلت : أفي غنمك لبن؟ قال : نعم. قلت : أفتحلب؟ قال : نعم. فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى . قال : فرأيت البراء يضرب إحدى يديه على الأخرى ينفض ، فحلب في قعب كثبة من لبن ، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه فوافقته حين استيقظ ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : اشرب يا رسول الله . قال : فشرب حتى رضيت ، ثم قال :« ألم يأن الرحيل ». قلت : بلى . قال : فارتحلنا بعد ما مالت الشمس ، واتبعنا سراقة بن مالك. فقلت : أتينا يا رسول الله. فقال :« لا تحزن إن الله معنا » .... رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٨) ومسلم في الأشربة (٢٠٠٩).

وتوبوا إلى الله ، وقولوا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣)

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

فلي كلمتان أيها الإخوة .

**الكلمة الأولى : مظلمة رفع إيجارات المنازل :**

إن كثيراً من الناس اتصل بي هاتفياً ، وأرسلوا لي رسائل عن طريق الفاكس ، وبعضهم جاءني إلى المكتب ، وبعضهم كتب في الصحف يستنجدون بي ؛ من مظلمة وقعت وشاعت في هذا البلد الطيب ، هذه المظلمة التي ظهرت فجأة ، ودون مقدمات ، ودون مبرر ، هي : رفع إيجارات المنازل على الساكنين المستضعفين ، وهذا أمر من القسوة بمكان ، والقسوة من أعمال القلوب ، ومن ذنوب القلوب ، التي تحدثنا عنها ، ولا يدري الناس بها .

القسوة ذنب ينبغي أن يتوب الناس منه ، الناس يظنون ؛ أن الذنوب فقط هي شرب الخمر ، وهي الزنى! لا . القسوة ظلم عظيم ، أن تقسوا على المسكين والضعيف ، ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون:١-٣) . إذا كنت تريد أن تعرف الكافر ، الذي يكذب بالدين ، وبالجزاء ، وبالآخرة ، فهو الإنسان القاسي الذي يَدُعَ اليتيم ويقهره ، ولا يحض على طعام المسكين ، ولا يهتم بأمره .

أرى كثيراً من الناس قد جاروا على المساكين وجاروا على الموظفين المستضعفين . العجيب أن الذين يستأجرون البيوت من أصحابها هم صغار الموظفين ، المحدودي الدخل ، الذين رواتبهم لا تكاد تكفيهم ، أو يفيض منها القليل ، فإذا رفعت الألف إلى ألفين ، أو الألف ومائتين إلى ألفين ، فكأنك رفعت سبعين في المئة ، أو خمسين في المئة . هذا ظلم كبير على الناس .

يا أخي هذه من الصدقة الخفية ، إذا خففت عن هذا الإنسان الضعيف كان لك صدقة عند الله ، بعض الناس يقول : يا أخي أنا لم أجبره . هو لا يستطيع أن يقول : لا . فهو مقهور ، مظلوم ، هذه عقود إذعان ، الإنسان يقهر الضعيف المستضعف ، ويفرض عليه ما لا يريد فلا يملك أن يقول : لا . هل يجلس في الشارع؟ هؤلاء الناس يستحقون الرحمة .

والعجيب أن كثيرا من أصحاب المنازل يصلون ، ويصومون ، ويتصدقون ، وبعضهم يذهبون إلى العمرة في كل رمضان ، خير من أن تذهب إلى العمرة ، أن تخفف عن عميلك هذا ، ولا تزيد عليه في الأُجرة ، ويكفيك القليل المبارك فيه ، والله لأَنْ تأخذ إيجاراً قليلاً ؛ ومعه دعوة من المستأجر ، يقول لك : ربنا يبارك لك في نفسك ومالك ، وأهلك ، وصحتك ، وعيالك ، وولدك . . . هذه الدعوة خير من الدنيا وما فيها ، وما تخفف عنه هو صدقة خفية ، صدقة غير معروفة ، صدقة مكتوبة عند الله عز وجل « ممن يتصدق بيمينه ، فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1].

أنا أدعو الإخوة في قطر إلى أن يتقوا الله في أنفسهم ، ويتقوا الله في إخوانهم ، ويرحموا الضعفاء من المستأجرين ، الذين لا حول لهم ولا طول . الرواتب كما هي لم تزد ، بل كثير من الناس ضعفت وخففت رواتبهم في الأعوام

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) وأحمد في المسند (٩٦٦٥) والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاء (٥٣٨٠) عن أبي هريرة.

الماضية ، ونزلت إلى الحد الأدنى ، تأتي أنت وتزيدها؟ تزيد عليهم؟ ارحم إخوانك يا أخي ، « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[1]، حتى لو كان لك الحق في هذا ، ليس العدل هو كل شيء ، حتى لو كان هذا عدلاً ؛ وما هو بعدل .

هناك الرحمة فوق العدل ، رحمة الضعفاء من الناس ، ارحم إخوانك الضعفاء لله عز وجل ، لا أحد يجبرك على أحد ، لا أحد يجبرك على هذا ، إذا فعلت هذا مبتغياً وجه الله ؛ فثق أن هذا في ميزان الحسنات والدرجات عند الله ، وقد وصف الله الأبرار بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:٨-١٢) .

أسأل الله أن يشرح صدور إخواننا أصحاب المباني والمساكن إلى الرحمة بإخوانهم ، والرفق بإخوانهم ، وأن يعوضهم الله عما يخفضونه ، يعوضهم الله خيراً في الدنيا وفي الآخرة .

## الكلمة الثانية : قضية فلسطين والعراق :

أما الكلمة الثانية ، فهي ما يجري في بلادنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ القضية القديمة الجديدة ، قضية فلسطين ، وقضية العراق .

قضية فلسطين التي يقدم أهلها كل يوم من دمائهم ، وأرواحهم ، وتضحياتهم ما يبهر الأبصار . هؤلاء القوم الذين نعتز بهم ونباهي . والله! نباهي بالطفل قبل

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦٤٩٤) عن عبد الله بن عمرو ، وقال مخرّجوه : صحيح لغيره ، ورواه أبو داود في الأدب (٤٩٤١) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) وقال : حسن صحيح ، وابن أبي شيبة في الأدب (٢٥٨٦٤) والطبراني في الأوسط (٢٣/٩) والحاكم في مستدركه كتاب البر والصلة (١٧٥/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي في الشعب (٤٧٦/٧) وفي الكبرى كتاب السير (٤١/٩).

الأب ، بالمرأة قبل الرجل ، هؤلاء الذين يقاومون السفاح شارون بصدورهم ، ومعه ترسانته الجبارة المؤيدة بالترسانة الأمريكية ، نحيي هذا الشعب الذي يقدم كل يوم ضحايا وشهداء ، ليس فقط الشهيد أحمد ياسين ، وليس الشهيد عبد العزيز الرنتيسي ، ولكن كل يوم يقدم شهداء وراء شهداء .

**مستر بوش راعي السلام أكل السلام « ولحسه » !**

نُحيي هذا الشعب ، ونقف مشدوهين أمام بيان بوش الأخير ، تصريحاته الأخيرة التي سلبت الفلسطينيين كل حق لهم ، بوش راعي السلام كما يزعمون ، راعي السلام ، أكل السلام ، وأكل كل شيء ، و(لحس) كل شيء . هذا ما قرأناه أخيراً ، حق العودة لملايين الفلسطينيين ؛ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، وشُردوا في آفاق الأرض ، حق العودة يرفضه السيد بوش ، ليس لملايين الفلسطينيين حق العودة إلى أرضهم ، أرضهم التي اغتصبها من اغتصبها ؛ الذين جاءوا من روسيا ومن أمريكا ، ومن بلاد العالم وأخذوها ، هؤلاء أصبحوا هم أصحاب الأرض! وأصحاب الأرض الحقيقيون ـ الذين لا يزال بعضهم يملك مفتاح داره على أمل أن يعود إليه يوماً ـ هؤلاء لا حق لهم في العودة ، بل زعم بوش : أن إسرائيل دولة يهودية ، ومعنى أنها دولة يهودية : أنه لا حق لغير اليهود في البقاء فيها .

ومعنى هذا : أن العرب الذين يزيدون عن المليون ، ويتوالدون أكثر فأكثر كل يوم ، هؤلاء لا حق لهم في البقاء داخل إسرائيل ، وزعم بوش ـ فيما زعم ـ أن المستوطنات التي أقيمت في الضفة الغربية ، وفي غيرها يجب أن تبقى ، هكذا منطق القوي على الضعيف ، هذا ما زعمه بوش ، وزعم بوش ـ فيما زعمه أيضا ـ أن حدود يونيو ٦٧ ليس من الضروري الرجوع إليها ، أي أن حدود إسرائيل حدود مفتوحة ، هي تزيد في حدودها ما تشاء ، وتتوسع ما تشاء ، وبالأمس سمعت شارون يقول : إن غزة ليست واردة في أن تدخل ضمن الدولة

العبرية ، غزة فقط ، يعني كأن الضفة الغربية وأريحا . . . وغيرها ، هذه كلها تدخل ضمن الدولة ، هكذا السيد بوش ، وأما خريطته المزعومة ، فلم يعد لها وجود ، على ما فيها من سيئات وسلبيات وهنات .

هذا هو منطق أمريكا أيها الإخوة ، أمريكا هي التي تساند الظلم الصهيوني ، والطغيان الصهيوني ، والسفاح الصهيوني ، هي التي تقف بالمرصاد وراء هؤلاء ، ولا تبالي لا بالعرب ، ولا بالمسلمين أصدقاء أمريكا ، ليقل لنا أصدقاء أمـريكا : ما موقفهم أمام هذا الحدث وأمام هذا البيان وأمام هذه التصريحات؟

يا أصدقاء أمريكا! ماذا تقولون وأمريكا هي التي تحاول أن تدمر العراق؟ احتلته بأكذوبة لا أساس لها ـ أسلحة الدمار ـ ، والآن تريد أن تفعـل بالعـراق ما تفعل . ولكن الله هيأ لها إخواننا الأشاوس العراقيين ، هؤلاء الأشاوس لهم بالمرصاد ، ونسأل الله أن يشد أزرهم ، وأن يرد كيد أعدائهم في نحورهم . . إننا لسنا أعداء لأحد ؛ نحن الذين نُعادى في عقر دارنا ، نحن الذين نُغزى في قلب أوطاننا ، نحن الذين تؤخذ منا ديارنا بغير حق ، نحن الذين تسفك دماؤنا صباح مساء ، نحن الذين تدمر منازلنا ، نحن الذين تهدم مساجدنا ، نحن الذين تنتهك حرماتنا ، نحن المعتدَى عليهم في كل حين .

يا قوم ارفعوا أيديكم عنا ، كفوا أيديكم عنا ، نحن نريد أن نتعامل معكم معاملة النِّد للنِّد ؛ فلماذا لا تعاملوننا هكذا؟ لماذا تعاملوننا كأننا عبيد وأنتم سادة؟! بل تعاملوننا كأنكم آلهة في الأرض ، لا تسألون عما تفعلون ، ولا تحاسبون على ما تقولون .

قرر بوش ما قرر ؛ دون أن يشاور أحداً من أصدقائه العرب المقربين هنا وهناك! الله سبحانه وتعالى حينما أراد أن يخلق آدم شاور الملائكة[1] . الله ؛

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة: ٣٠).

خالق السماوات والأرض!! ولكن بوش لا يشاور أحداً . هو إذا قال للشيء : كن ؛ فيكون!! ولكن لن نستسلم أبداً أيها الإخوة هذه الأمة لن تركع إلا لله ، لن تُعفّر جباهها إلا ساجدة لله . لن تحني ظهورها إلا لله . سنقاوم وليس أمامنا إلا المقاومة . وأظن أن دعاة السلام ، ومفاوضات السلام ، ومسيرة السلام ، أحسبهم قد يئسوا ، إنهم لم يجدوا شيئاً يمسكون به ، إنهم وجدوا السراب ؛ ظنوه ماء حتى إذا جاءوا عنده لم يجدوا شيئاً، آن لنا أن نتمسك بخيار المقاومة، هو الخيار الوحيد ، مهما نكن ضعفاء ، فهذا هو خيارنا الوحيد ، والله لن يتخلى عنا ، والله ناصرنا ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم:٤٧) ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤٩) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشدا ، وأن يجمع كلمتها على الهدى ، وقلوبها على التقى ، ونفوسها على المحبة ، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام . . . .

إن شاء الله ؛ سنصلي صلاة الغائب على الشهيد : عبد العزيز الرنتيسي[1] ، وإخوانه في فلسطين ، والعراق ، وغيرها من بلاد الإسلام ، إن شاء الله .

* * *

(١) كان اغتيال الشهيد عبد العزيز الرنتيسي في ١٧/٤/ ٢٠٠٤م.

# (١٤)

# التوبة النصوح وعناصرها[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

**التوبة لا تكون إلا لله تعالى :**

لا زلنا نتحدث عن تزكية الأنفس، ولا زال حديثنا موصولاً عن محطة التوبة. التوبة : محطة من محطات الطريق إلى الله عز وجل . قلنا : إن الطريق إلى الله مراحل ، مرحلة تتبعها مرحلة ، لا بد أن يجتازها الإنسان . وذكرنا أول مرحلة ؛ أو أول محطة في هذا الطريق : هي محطة العلم . العلم الذي يعرف الإنسان الهدى من الضلال ، ويعرفه الحلال من الحرام ، ويعرفه الصواب من الخطأ ، فيمضي في طريقه على بصيرة ، ويمشي على بينة ، حتى لا تلتبس عليه المسالك ، ولا يضله شيطان من الجن ، أو شيطان من الإنس .

والمحطة الثانية التي تحدثنا عنها في الخطبة الماضية ، هي : محطة التوبة ؛ التوبة إلى الله عز وجل ، وليست إلى أحد سواه ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (النور: ٣١) ، ليس مطلوباً منك أن تتوب إلى شيخ أو كاهن ، إنما مطلوب منك أن تتوب إلى الله ، أن ترجع إلى الله بعد شرودك ، أن تضع يدك في يد الله ، أن تصالح الله عز وجل ، أن تستغفر من ذنبك ، أن تقول : رب اغفر لي ، وارحمني ، وتب عليّ .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في يوم الجمعة ٢٥ من ربيع الأول ١٤٢٥ هـ ، الموافق : ١٤ مايو ٢٠٠٤م .

التوبة إلى الله ؛ وليست إلى أحد من خلقه ، هناك بعض الناس يذهب إلى الشيخ ويقول له : يا سيدنا الشيخ توّبني . فيقول له ردد معي : تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على معصية الله ، وعزمت على طاعة الله ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، ويخرج من عنده ويظن أنه قد تاب ؛ لا . ليست هذه التوبة .

التوبة ليست كلاماً يلاك باللسان ، التوبة عمل كبير . التوبة تغيير لحياة الإنسان ، واتجاه الإنسان . التائب يحاول أن ينشئ من نفسه خلقاً آخر . يريد أن يُغَيِّر حياته ، يُغَيِّر تفكيره ، يُغَيِّر نيته ، يُغَيِّر سلوكه ، يُغَيِّر علاقاته .

هذه هي التوبة ، التوبة عمل جليل ، ليست كلاماً يعترف به الإنسان أمام الشيخ ، كما يعترف النصراني أمام القسيس . لا . ليس مطلوباً منك أن تعترف أمام أحد ، ولا أن تفضح نفسك عند أحد ، « كل أمتي معافى إلا المجاهرين »[1] ، لا تجاهر بذنبك لأحد ، إلا فيما بينك وبين ربك عز وجل .

التوبة واجبة على كل مسلم ، الله تعالى يقول : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١) ، جميعاً ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

## كل بني آدم خطّاء :

وقد ذكرت في الخطبة الماضية : أن من ظنّ أنه ليس لديه ذنب يتوب منه ، وأنه ليس في حاجة إلى التوبة ، فهذا هو : الغرور المهلك ، وهذا هو العُجب القاتل ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون[2] » ، كل بني آدم خطّاء . الإنسان بحكم تكوينه ، بحكم العنصر الطيني

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥١) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩) وقال : حديث غريب ، وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب ذكر رحمة الله (٦٢/٧) والدارمي في التوبة (٢٧٢٧) وأبو يعلى في المسند (٣٠١/٥) والحاكم في مستدركه كتاب التوبة والإنابة (٢٧٢/٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : علي بن مسعدة لين ، ورواه البيهقي في الشعب (٤٢٠/٥) عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٨).

في طبيعته لا بد أن يخطئ ، ولا بد أن يذنب ، وإذا كان أبوه الأول آدم عليه السلام قد أخطأ وأذنب ، وأمه الأولى حواء قد أخطأت وأذنبت ، فلماذا يستكثر على نفسه أن يخطئ؟ إذا كان الأب قد عصى وأخطأ ، كما قال عز وجل : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢١،١٢٢) ، أبوك قد أخطأ ، فليس عجيباً أن يخطئ الابن ؛ إذا كان قد سبقه الأب . ولكن آدم حينما أخطأ ، حينما عصى ؛ أعطاه الله هذه الممحاة ، هذه المغسلة ؛ التي يغتسل فيها فيخرج طاهراً مطهراً ؛ إنها التوبة ، ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ ، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٣٧) .

إياك أن تقول : أنا إنسان طيب ، طاهر ، طهور ، لا معصية عندي ، ولا ذنب عليّ ، فلست في حاجة إلى التوبة ، فإن أكرم خلق الله على الله ، وأفضل رسل الله ؛ محمداً عليه الصلاة والسلام قال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة[1] » ، كان يقول : « إنه ليغان على قلبي ـ أشعر بشيء في قلبي يلين ـ فأستغفر الله في اليوم مائة مرة[2] » يشعر بالتقصير ، يشعر بالتفريط ، بأنه كان يمكن أن يكون أفضل ، أو أنه كان في حالة تترقى إلى حالة أحسن منها ، فيشعر في هذه الحالة بأنه كان مقصراً من قبل ، وهو يزداد تقرباً إلى الله عز وجل ، « أستغفر الله في اليوم مائة مرة » . هذا هو رسول الله ﷺ ، فإياك أن تقول : ليس عندي معاصي ولا ذنوب .

## معاصي القلوب أشد من معاصي الجوارح :

ما أكثر الذنوب والمعاصي التي يقع فيها الإنسان في كل يوم ، معاصي العين ، ومعاصي الأذن ، ومعاصي اللسان ، ومعاصي اليد ، ومعاصي الرجل ، ومعاصي شهوة البطن ، ومعاصي شهوة الفرج ، وكل هذه من معاصي الجوارح

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزني ، وقد سبق تخريجه .

(٢) رواه مسلم عن الأغر المزني ، وقد سبق تخريجه .

من المعاصي الظاهرة ، وهناك وراء ذلك معاصي القلوب ، المعاصي الباطنة : وهي أشد خطراً من معاصي الجوارح ، معصية الجوارح : هي معصية آدم عليه السلام حينما أكل من الشجرة ، ونسي النهي الإلهي ، وضعفت عزيمته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه:١١٥).

أما معاصي القلوب فهي : من جنس معصية إبليس ، إبليس لم تكن معصيته من المعاصي الظاهرة ، ولكنها كانت الكبر والغرور ، أُمِرَ بأن يسجد لآدم فأبى ، واستكبر ، وكان من الكافرين ، تمرد على أمر الله ، وقال في غرور وصلف : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف : ١٢) و(ص :٧٦) ، تحدى أمر ربه ، هذه هي معاصي القلوب . كم عند الإنسان من معاصي القلوب وهو لا يشعر ؟ !

يقول ابن عطاء الله في حكمه: ربما كتب الله لك الطاعة وما كتب لك القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سبباً في الوصول ، معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خيراً من طاعة أورثت عجباً واستكباراً[1] .

هذه نظرة الصالحين إلى أنفسهم ، انظر إلى نفسك ؛ فتجد الكثير من المعاصي ، إن كنت مرهف الحسّ ، يقظ العقل . أما إن كنت بليد الحس ، أو مغروراً أو معجباً ؛ فتظن أنك مبرأ من كل عيب .

**التسويف جند من جنود إبليس :**

التوبة واجبة على الجميع ، ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور:٣١)، وهي واجبة على الفور ، إذا أذنبت وجب عليك أن تتوب لا تؤخر ولا تسوف فقد قيل : أكثر أهل النار المسوفون . الذين يقولون : سوف أتوب ، إذا كان في العشرين يقول : حينما أبلغ الثلاثين ، وابن الثلاثين

---

(١) انظر : الحكم العطائية والمناجاة الإلهية ، ص ٥٩ .

يقول : في الأربعين ، وابن الأربعين يقول : في الخمسين . وهكذا كل إنسان يقول : سوف ، وقد قال السلف ﷺ : « سوف » جند من جنود إبليس ، كلمة « سوف » . . . التأخير والتسويف هذه من جنود إبليس ، إياك و« سوف » أسرع بالتوبة من الذنب قبل أن يتفاقم ، وقبل أن يستفحل ، وقبل أن يضاف إليه ذنب آخر .

النبي ﷺ يقول : « إن العبد إذا أذنب الذنب نكت في قلبه نكتة ـ نقطة سوداء جعلت في قلبه ـ فإن تاب ونزع صقلت ـ مسحت ومحيت ـ فإن عاد إلى ذنب آخر نكت نكتة أخرى ، فإن عاد إلى ثالث نكت نكتة ثالثة ، ثم رابعة ، حتى يسود قلبه ـ من كثرة النقط السوداء في قلبه اسود قلبه ـ فذاك الران الذي قال الله فيه : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(المطففين:١٤)[1]. أسود القلب ، فسارع بالتوبة .

الحزم أن تسارع بالتوبة ولا تؤجل ، سارع بالتوبة فهذا من استباق الخيرات ، قد أمرنا الله باستباق الخيرات ، وأمرنا بالمسارعة إلى المغفرة والجنة ، وبالمسابقة إلى المغفرة والجنة ، فقال ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) ، وقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (الحديد:٢١). فإذا أخّر التوبة ؛ كان هذا ذنباً آخر .

---

(١) الحديث رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ بلفظ :« إن العبد إذا أخطأ خطيئة ؛ نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها ؛ حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين:١٤) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤) والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٣٤) وقال هذا حديث حسن صحيح والنسائي في « السنن الكبرى» كتاب عمل اليوم والليلة (١٠١٧٩) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٤١) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٤).

يقول الإمام ابن القيّم[1] : إذا تاب من ذنب ؛ وكان قد أجل التوبة منه ، فعليه أن يتوب مرتين : مرة عن الذنب ، ومرة عن التأخير . فإن تأخير التوبة من الذنب ذنب آخر .

التوبة واجبة على الفور ، وواجبة على الناس جميعاً ، كل يتوب على حسب حاله ، هذا يتوب من النفاق ، وذاك يتوب من الكبائر ، وذاك يتوب من الصغائر ، وهذا يتوب من الشبهات ، وآخر يتوب من الغفلات ، مجرد الغفلة عن الله ، غفلات القلوب يعتبرونها موجبة للتوبة . قيل توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلات ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨) .

## التوبة النصوح وعناصرها؟

أمرنا الله بالتوبة جميعاً ، وأمرنا الله بالتوبة النصوح ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (التحريم:٨) .

ما التوبة النصوح؟ النصح في اللغة العربية[2] : الخلوص ، قالوا : نصح العسل أي خلا من الغش ، والشوائب الغريبة ، فأصبح صافياً . فالتوبة النصوح : هي

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٧٢). ونقل ابن القيم في الفوائد عن شقيق بن إبراهيم : أن تأخير التوبة من أسباب إغلاق باب التوفيق ، فقال : أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء :

١- اشتغالهم بالنعمة عن شكرها.

٢- ورغبتهم في العلم وتركهم العمل.

٣- والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.

٤- والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم .

٥- وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها.

٦- وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

انظر : الفوائد لابن القيم ص ١٧٧.

(٢) انظر : لسان العرب (٢/ ٢٠٦).

التوبة الخالصة ، التوبة الصادقة ، التوبة التي يطابق فيها اللسان القلب ، ويطابق فيها القول العمل .

التوبة النصوح تحدث عنها علماء السلوك[1] وشرحوها شرحاً وافياً ، وهي كما ذكر الإمام الغزالي وغيره[2]: دواء مركب من عدة عناصر ؛ عنصر معرفي ، وعنصر وجداني ، وعنصر عملي .

## العنصر الأول : المعرفي الإدراكي :

العنصر المعرفي الإدراكي ؛ الذي يتعلق بعقل الإنسان . إن الإنسان لكي يتوب لا بد أن ينظر في نفسه ، ويتأمل في حاله ، ويعرف ما له وما عليه ، يعرف نفسه ، فيعرف ربه ، ويعرف حق ربه عليه ، وما يطالبه به من واجبات ، وما ينهاه عنه من محرمات ، وما موقفه أمام الواجب عليه ، وأمام المحظور عليه ؛ هل أدى الواجب كما ينبغي؟ هل ترك المنهيات كما ينبغي؟

لا بد أن ينظر الإنسان في نفسه نظرة أُولي الألباب ، لا نظرة الغافلين ، ولا الجاهلين ، ولا السطحيين ، ومن نظر إلى ذلك ؛ ونظر إلى نعم الله عليه تغمره من رأسه إلى قدمه ، وتحيطه من كل جوانبه ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ** ﴾ (إبراهيم : ٣٤) و(النحل : ١٨) ، وهو يقابل هذه النعم بالمعصية ، (خيري إليكم نازل وشركم إليّ صاعد) ، خَيْرُ الله إليه نازل باستمرار ، وشره إلى الله صاعد ، يتحبب الله إلى الناس بنعمه وهو الغني عنهم ، فيتبغضون إليه بالمعاصي وهم أفقر شيء إليه . لا بد للإنسان أن ينظر في أمره ، وأمر ربه معه ، وماذا قدم من طاعات؟ وماذا قصر فيه من واجبات؟ وماذا وقع فيه من معاصي؟ هذا ما ينبغي للمؤمن .

---

(١) ذكر القرطبي في تعريفها ثلاثة وعشرين قولا لأهل السلوك . انظر : تفسير القرطبي (١٨/١٧٤).

(٢) الإحياء (٤/ ٣ ، ٤) .

هذا الجانب المعرفي . المعرفة في الإسلام قبل العمل ، الله تعالى يقول ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٥٤) ، ليعلموا فيؤمنوا فتخبت القلوب ، العلم هو دليل الإيمان ، يدفع إلى الإيمان ، والإيمان يدفع إلى إخبات القلوب ، وخشوعها ، ورقتها لله عز وجل ، فالعلم هو السابق ، ولذلك لا بد للإنسان أن يتعلم ، وأن يتفقه في دينه ، حتى يعرف مقام الله عز وجل ، وما يقتضيه هذا المقام من عظيم الحقوق ، ويعلم تقصيره في جنب الله عز وجل ، هذا العنصر المعرفي هو الأساس ، إذا غاب هذا العنصر لم تحدث توبة ، ولم يحدث شيء ، لأنه يعيش في بلادة ، ويعيش في ظلمة ، ولا يحس بأي شيء مما يجب عليه ، وكل ما يذكره هو نفسه ، أنانيته ، شهواته ؛ أما حقوق الله عليه ، وحقوق الناس عليه ؛ فهي في غيبة عنه .

العنصر الأول في التوبة إذن : هو العنصر المعرفي .

**العنصر الثاني : النفسي الوجداني :**

هذا العنصر يدفع إلى عنصر آخر ، عنصر نفسي عنصر وجداني . هذا العنصر النفسي يتكون من أمرين :

**١ – الندم اللاذع :**

أمر انفعالي ؛ وهو ما يسميه العلماء : الندم ؛ الندم على ما فرّط فيه من معصية ، سواء كانت هذه المعصية : ترك مأمور ، أو فعل محظور . المعاصي تنقسم إلى ترك المأمور مثل : ترك الصلاة ، ترك الزكاة ، ترك بر الوالدين ،ترك صلة الأرحام ، ترك الإحسان إلى الجيران ، ترك إتقان العمل .

أو كانت فعل محظور من المحظورات ، وكثير من الناس يظنّ المحظورات : هي الزنى ، وشرب الخمر . . .أو الكبائر المعروفة فقط ، وينسون كثيراً من المعاصي التي يقع فيها الناس باستمرار ، قد تكون هذه المعصية احتقار

الآخرين ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم[1]» .

قد تكون هذه المعصية استكبارا على الناس ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام :«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر[2]» ، قد تكون هذه المعصية ظلم الضعفاء من الناس ، أن تظلم الضعيف وأن تقهره ، وأن تَدُعَّ اليتيم ، وتقهر اليتيم ، أو تترك الحض على طعام المسكين ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ـ الكافر الذي يكذب بالدين والقيامة والجزاء ـ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون:١-٣) . الذي يدفع اليتيم بعنف ، ولا يحافظ على شعوره ، ولا على نفسيته ؛ لأنه حساس باعتباره يتيماً ، ولا يحض على طعام المسكين ، لا يحرّض الناس على رعاية حاجات المسكين ، وضروراته ، والإطعام في أولها ؛ هذا إنسان قاس ، القسوة إذن على خلق الله من أعظم الذنوب .

قد يكون ذنبه أنه يمشي في ركاب الظالمين ، ويرّوج لهم . قد يكون ذنبه أنه يروج الباطل في الناس ؛ ويزين المعاصي : الخلاعة والفجور والانحراف .

ما أكثر الذنوب التي يقع فيها الناس ، لذلك لا بد للإنسان إذا وقعت منه معصية من هذه المعاصي ، أن يشعر بالندم ، الندم : حسرة في القلب ، حزن في القلب ، نار تلسع القلب لسعا ؛ بل لربما تكويه كياً ، على حسب رهافة الشعور عند الناس ، هناك من يلسعه الندم ، وهناك من يكويه الندم على ما فرّط فيه ؛ في جنب الله ، أو في حقوق الناس .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) وأحمد في المسند (٧٧٢٧) وابن ماجه في الزهد (٤٢١٣) عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٣١) وابن ماجه في المقدمة (٥٨) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٢) عن عبد الله بن مسعود .

هذا العنصر هو أهم العناصر في التوبة ، حتى إن النبي ﷺ قال : « الندم توبة[1] » ، أي هو أعظم أركان التوبة ؛ كما قال : « الحج عرفة[2] » ، أي هو أعظم أركان الحج . الندم هو : هذه الحسرة ؛ هذه النار التي تعمل عملها في قلوب من صحا من نومه ، أو من سكرته ، وأحس بذنبه وبحق ربه .

## نفسية التائبين في القرآن الكريم :

هذا عنصر مهم في التوبة .

ذكر الله لنا في القرآن نفسية بعض التائبين ، الثلاثة من الصحابة الذين خُلّفوا في غزوة العسرة - غزوة تبوك - عن رسول الله ﷺ ، ولم يلحقوا بالركب المجاهد ، ولم يجدوا لأنفسهم عذرا ، فبقوا في المدينة ، وصفهم الله بقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١١٨) ، قال ذو النون المصري : التائب هو من يشعر بهذا ، أن تضيق عليه الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، ويظن أن لا ملجأ من الله إلاّ إلى الله .

سيدنا آدم وسيدتنا حواء ؛ حينما أكلا من الشجرة شعرا بأنهما أخطئا وأذنبا ، فأحسا بهذا الندم ، فناجيا ربهما بقولهما : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤٠١٢) وقال مخرّجوه : صحيح وهذا إسناد قوي ، ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢) والطيالسي في المسند (٥٠/١) والبزار في المسند (٣١٠/٥) وأبو يعلى في المسند (٣٨٠/٨) وابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق (٣٧٧/٢) والطبراني في الصغير (٦٦/١) وفي الأوسط (٤٤/٧) والحاكم في مستدركه كتاب التوبة والإنابة (٢٧١/٤) والبيهقي في الشعب (٣٨٦/٥) وفي الكبرى كتاب الشهادات (١٥٤/١٠) عن ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٨٧٧٤) وقال مخرّجوه : إسناده صحيح ، ورواه ابن ماجه في المناسك (٣٠١٥) وأبو داود في المناسك (١٩٤٩) والترمذي في الحج (٢٩٧٥) وقال حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي في مناسك الحج (٣٠١٦) عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي .

﴿وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣) . هذا الندم هو الذي دفع إلى هذا الاستغفار .

سيدنا نوح عليه السلام شيخ المرسلين حينما قال لربه : ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هود:٤٥،٤٦) ، هذا الرد الإلهي الحاسم ؛ جعل نوحاً ينتفض أمام مقام الله عز وجل ، ويقول ـ في حالة من الندم واليقظة ـ : ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (هود:٤٧)

موسى عليه السلام حينما وكز الرجل القبطي ، فقضى عليه ، قتله قتل خطأ ، فرجع إلى الله وندم على ما فعل ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص:١٥،١٦) ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾، هذا الندم .

سيدنا يونس ؛ ذو النون صاحب الحوت ، حينما التقمه الحوت بعد أن حدث ما حدث مع قومه ، شعر بالندم فقال منادياً ربه في الظلمات : ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت . ماذا قال؟ قال بعد شعوره بالندم : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧) ، هذه الكلمات الثلاث التي تتضمن التوحيد : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ والتنزيه من كل نقص : ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ والاعتراف : ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا هو الندم .

الندم هو العنصر المهم في التوبة ، من لم يشعر بهذا الندم يكويه فليس بتائب ؛ مهما قال : إني تبت . أول مظاهر التوبة ، ودلائل التوبة : هو هذا الشعور الذي يَكْوي الإنسان من داخله ، يحترق من داخله ، يغسل نفسه بدموعه ؛ هذا هو الندم .

## ٢- العزم الجازم :

وهناك عنصر نفسي آخر . الندم يتعلق بالماضي . والعنصر الآخر يتعلق بالمستقبل ، أن يعزم على أن لا يعود إلى المعصية التي تاب منها أبداً . ساعة التوبة يكون مصمماً أن لا يرجع إلى هذه المعصية ، طلقها ثلاثا ، لا وصل بينها وبينه أبداً ، لا بد من هذا التصميم . يقول العلماء : كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه[١] ، لا يعود إلى المعصية أبدا ، هكذا تكون نيته ، وإن حدث بعد ذلك أنه ضَعُف وزلت قدمه ، وعاد إلى المعصية ؛ لا يضر بالتوبة ، المهم ساعة التوبة أن يكون عنده هذا العزم المصمم على أن يُغَيِّر حياته ، وأن يبدأ صفحة جديدة مع الله ، وينتهي من الصفحات السوداء القديمة هذه .

## التوبة ترمم بناء الإيمان الذي تَهَدَّم بالمعاصي :

هذا العزم المصمم حين يتوب إلى الله : يندم على ما فات ، ويعزم على إصلاح ما هو آت ، يعزم على أن يرمم البناء الذي تَهَدَّم ، أن يُعيد هذا الإيمان إلى أصله ، الإيمان يُخدش بالمعاصي ؛ خصوصاً بالكبائر ، وفي الحديث الشريف « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[٢] ، عندما يفعل هذا ينزع الإيمان منه ، فإما أن يعود الإيمان مرة أخرى بالتوبة ، وإما أن يظل الإيمان الحقيقي ، أو الإيمان الكامل ، أو الإيمان الصادق ؛ ناقصاً مخدوشاً .

لا بد للإنسان أن يعزم هذا العزم الصادق ، حتى يجدد إيمانه ، ويرمم إيمانه ويعود كما كان من قبل . وبهذا وجد في التوبة : عنصر معرفي ، وعنصر نفسي ، بشطريه ؛ الندم على الماضي ، والعزم على إصلاح المستقبل .

---

(١) ذكر القرطبي هذا في تعريفات التوبة. وقال : روي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ ابن جبل ﷺ ، ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ . انظر : تفسير القرطبي (١٨/١٧٤).

(٢) رواه البخاري في المظالم (٢٢٩٥) ومسلم في الإيمان (٨٦) والترمذي في أبواب الإيمان (٢٧٦٠) عن أبي هريرة.

**العنصر الثالث : العنصر العملي للتوبة (الإقلاع عن المعصية) :**

وهناك عنصر عملي ؛ العنصر العملي : أن يقلع بالفعل عن المعصية ، هذا معنى التوبة ، وإلا ما معنى أن يتوب وهو مقيم على ما كان عليه؟! التوبة : أن يقلع عن المعصية بالفعل . أن يتركها ؛ يتركها من قلبه ، ويتركها من جوارحه ، ويتركها من حياته ، هذا أمر لا بد منه ، الأمر العملي ، الله تعالى يقول في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:٦٨-٧٠) ، ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ ، لأنه كما قلنا المعاصي تخدش الإيمان ، فيعيد الإيمان ، ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ ، لا بد من عمل صالح .

هذا هو شأن التوبة النصوح ، التوبة الصادقة ، أن تدفع الإنسان إلى عمل صالح ، بعد عمل السيئات يعمل الصالحات ، ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه:٨٢) هكذا ﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، بلغ الهداية الكاملة . هذه التوبة درجات يرتقي فيها الإنسان حتى يصبح من الأئمة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (الأنبياء:٧٣) هناك أئمة يدعون إلى النار ، وهناك أئمة يهدون بأمر الله .

**فروع لهذا الأصل :**

العمل هو العنصر الثالث بعد العنصر المعرفي والإدراكي ، والعنصر النفسي والوجداني والإرادي ، وهذا العنصر العملي وهو أصل يترتب عليه فروع ، أصله هو ترك المعصية .

**محو السيئة بالحسنة :**

وهناك فروع لهذا الأصل ، من هذه الفروع : ما قاله النبي ﷺ لأبي ذر ومعاذ ابن جبل قال لهما : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها[1] » إذا كنت تعمل السيئات من قبل ؛ فأتبع السيئات حسنات تمحها تزيل أثرها ، كما قال الله عز وجل ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ (هود:١١٤) ، قال العلماء : إن الله جعل للمسلم أنهارا يغتسل فيها من معاصيه وذنوبه ؛ هناك نهر التوبة ، ونهر الاستغفار ، ونهر الحسنات ، الحسنات : الوضوء حسنة ، والصلاة حسنة ، والصيام حسنة ، والصدقة حسنة ، وبر الوالدين حسنة ، وصلة الأرحام حسنة ، والإحسان إلى الناس حسنة . ما أكثر الحسنات ، الحسنات كثيرة جداً ، ولكن الناس لا يستفيدون منها ، « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

**اجعل الحسنة من جنس السيئة :**

وحاول أن تكون الحسنة من جنس السيئة . إذا كانت سيئتك هي الغيبة ؛ اغتبتَ فلانا ؛ فحاول أن تكون حسنتك أن تمدحه أمام من اغتبتهَ ، هذه حسنة من جنس السيئة . إذا كانت سيئتك قطع الرحم ؛ فاجعل حسنتك أن تصل الأرحام وأن تدعو الناس إلى صلة الأرحام . إذا كانت سيئتك أنك تشيع الخلاعة أو المعصية في الناس ؛ مثل : القصاصين ، والممثلين ، والمطربين ، وهؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل الفن ، وهم يعيثون في الأرض فساداً ؛ بترويج

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢١٣٤٥) عن أبي ذر ، وقال مخرّجوه : حسن لغيره ، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة ، ورواه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٥) وفي الصغير (١/ ٣٢٠) والحاكم في مستدركه كتاب الإيمان(١/ ١٢١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ورواه الدارمي في سننه كتاب الرقاق (٢٧٩١) والبيهقي في الشعب (٨٠٢٦).

المعاصي وتجريء الناس على الشهوات المحرمة ، إذا كانت سيئتك من هذا النوع ؛ فحاول أن تكون حسنتك مضادة لها .

قلت للتائبات من الفنانات المصريات : حاولوا أن تعملوا ضد ما كنتم تعملون ، كنتن قبل ذلك تنشرن التكشف ؛ الآن عليكن أن تنشرن الحشمة ، كونّ جمعيات لنشر الفضيلة ، اعملن في الاتجاه المضاد للاتجاه السابق ؛ وهكذا ، إذا كان عمل الإنسان أن يكتب كتباً تدعو إلى الضلالة ؛ فعليه أن يكتب كتباً تدعو إلى الهداية وإلى الحق ، حاول أن تعمل حسنة مضادة للسيئة التي كنت تعملها ، وبهذا تمحو السيئة القديمة ، « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

## غَيِّر البيئة التي كنت تعيش فيها :

ومن المهم أيضاً في هذا الجانب العملي ؛ أن يُغَيِّر الإنسان البيئة التي كان يعيش فيها ، إنه يريد أن يحيا حياة جديدة ؛ فلا بد أن تتخلص من حياتك القديمة بشخوصها وأصحابها . كل ما يذكرك بالقديم ابتعد عنه ، ولذلك جاء في الحديث الصحيح ؛ حديث الرجل الذي قتل مئة نفس ، وسأل عن أعلم أهل الأرض ، وقال له الرجل حينما سأله : هل تجوز لي التوبة؟ قال : ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم قال له : عليك أن تهجر القرية التي كنت فيها ، وتذهب إلى قرية كذا ، فأهلها صالحون ، ولا ترجع إلى قريتك ، فإنها قرية سوء[1] .

طلب منه أن يُغَيِّر البيئة ، وقد قال بعض علماء السلوك : التوبة ندم بالجنان ، وعزم على ترك العصيان ، واستغفار باللسان ، وإقلاع عن المعصية بالأبدان ، وهجر سيء الخلان . اهجر خلان السوء الذين يقودونك إلى النار ، الذين مثلهم النبي ﷺ بنافخ الكير[2] ، الحداد إذا لم يحرقك بناره أصابك دخانه ، احذر من

---

(١) يشير فضيلة الشيخ إلى حديث الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ، وقد رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (٢٧٦٦) وابن ماجه في الديات (٢٦٢٢) عن أبي سعيد الخدري .

(٢) إشارة إلى حديث أبي موسى الأشعري ، وهو متفق عليه : رواه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨) .

خلان السوء ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) .

احذر أصدقاء السوء ، الله تعالى يقول : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٦٧) ، كل الخلان والأصدقاء يوم القيامة أعداء ، بعضهم لبعض ، كل واحد يقول : أنت الذي أضللتني ، أنت الذي أغريتني ، أنت الذي حرضتني على كذا ؛ إلا المتقين ، الأصدقاء كلهم يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا يوم القيامة ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، أهل التقوى الذين تحابوا في الله عز وجل ، وتجالسوا في الله عز وجل ، وتعاونوا على البر والتقوى ، فهؤلاء يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[1] .

احذر من خلان السوء ، هذه كلها من الجوانب العملية للتوبة ، وبهذه العناصر كلها تتم التوبة الحق ، العنصر المعرفي ، والعنصر الوجداني النفسي ، والعنصر العملي ، بهذا تكتمل توبة الإنسان ، ويقبل على الله عز وجل ، راغباً في مثوبته ، محباً لطاعته ، هذا شأن الناس المؤمنين ، أنهم يقبلون على الله عز وجل ، ويشعرون بلذة الطاعة ، وبحلاوة الرجوع إلى الله ، التائب يشعر كأنه قد كسب غُنما عظيماً ، أعظم مما يحصل عليه الناس من كنوز الدنيا ، وشهوات الدنيا ، أعظم من هذا كله أن تشعر أنك اقتربت من الله خطوة ، وكلما اقتربت من الله اقترب الله منك ، « من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[2]، أقبل على الله يقبل الله عليك .

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة : « سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : ... ورجلان تحابا في الله..... » متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) وأحمد في المسند (٩٦٦٥) والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاء (٥٣٨٠) .

(٢) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) وأحمد في المسند (٧٤٢٢) وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٢) والترمذي في الدعوات (٣٦٠٦) عن أبي هريرة .

فيا أيها المؤمنون توبوا إلى الله عز وجل ، لا تؤخروا التوبة ، فإنك لا تدري هل تعيش غداً أو لا تعيش؟ لا تدري إذا أصبح عليك الصباح ؛ هل يأتي عليك المساء أو لا يأتي؟ لا تدري حينما تلبس ثوبك أتنزعه بيدك أم تنزعه عنك يد غاسلك بعد موتك؟ لا تدري ! !

**تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جن عليك ليل هل تعيش إلى الفجر**
**فكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر**
**وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري**

توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون،واستغفروا يغفر الله لكم، وادعوا ربكم يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

**ذكرى إعلان الدولة الصهيونية :**

في الغد الخامس عشر من شهر أيار أو مايو حدث ـ بالنسبة للمسلمين ـ أخطر حادث في القرن الماضي ؛ القرن العشرين . هذا الحدث : هو إعلان قيام الدولة الصهيونية ، التي سموها : إسرائيل . أعلن عن قيام هذه الدولة في غفلة من العرب ، وغفلة من المسلمين ، ظل اليهود يعملون ويخططون ، منذ عقود من السنين ، والأمة عن هذا لاهية ، لا تدري ما يبيت لها ، لا تدري المكايد التي يكيد لها بها أعداؤها .

**ومن رعى غنما في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد!**

نمنا واستيقظ الآخرون ، وغفلنا وتنبه الآخرون ، منذ سنة ١٨٩٧م ، في أواخر القرن التاسع عشر ؛ اجتمع اليهود برئاسة هرتزل في مدينة بازل في

سويسرا ، في مؤتمرهم التاريخي ، وأعلنوا في هذا المؤتمر : عن قيام دولة إسرائيل ، أو دولة اليهود ، أنها ستقوم بعد خمسين سنة ، ولم يقولوا هذا مجرد كلام ، ولكنهم قالوا وفعلوا ، خططوا ونفذوا ، كان لهم رجال يشعرون بأن عليهم مهمة تاريخية ، عليهم أن ينجزوها ، ولم يكن عندنا رجال يشعرون بهذا الشعور ؛ بل كان عندنا رجال يفكرون تفكيراً آخر ؛ يفكرون في هدم الخلافة الإسلامية ، وهدم هذه المظلة التاريخية ، وتحطيم هذه القلعة ؛ التي أظلت المسلمين تحت ظلالها عدة قرون

## إسرائيل قامت على أساس ديني :

عمل اليهود ، وبعد خمسين سنة ، أو واحد وخمسين سنة قامت دولتهم ، دولتهم التي سموها اسماً تاريخياً دينياً : اسم إسرائيل ، إسرائيل هو : يعقوب عليه السلام ، وهم بنو إسرائيل ، لم يسموها اسماً حديثاً : اتحاد الجمهوريات الاشتراكية . . ولكن سموها إسرائيل ، هم قد اجتمعوا على أحلام توراتية ، وتعاليم دينية وتلمودية ، وجمعوا اليهود من المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب ، تحت هذا العنوان الديني . جمعوهم في أرض الميعاد .

وكان إخوتنا في فلسطين يقاومون هذا الغزو الجديد ، قاوموه سنوات وسنوات ، ولكن كان هناك الانتداب البريطاني ، الذي فرض على فلسطين منذ سنة ١٩١٧م ، ودخل القائد الإنجليزي اللنبي الشهير ، وقال كلمته التاريخية : اليوم انتهت الحروب الصليبية! كما قال زميله الفرنسي حينما دخل دمشق ، ووقف أمام قبر صلاح الدين ، وقال بشماته : ها قد عدنا يا صلاح الدين!

اليوم انتهت الحروب الصليبية ، هكذا قال اللنبي . وفي الحقيقة في هذا اليوم لم تنته الحروب الصليبية بل بدأت حرب صليبية جديدة ، لا زال أوارها يعمل ويشتعل من ذلك اليوم وإلى اليوم . دخل الانتداب البريطاني ، وكان غطاء مهما لإقامة الوطن القومي ؛ الذي وعد به وزير خارجية بريطانيا «بلفور» الشهير ،

وعد به اليهود ، وهو إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، كأن فلسطين وطن بغير شعب حتى تستقبل شعباً بغير وطن ، وهنا قالوا : إن من لا يملك وعد من لا يستحق .

## كاد المشروع الصهيوني أن يفشل لولا حكام العرب :

المهم أيها الإخوة! ظل إخوتنا في فلسطين يقاومون . وفي سنة ١٩٣٦م أقاموا إضراباً وعصياناً مدنيا ، وعطلوا الحياة كلها ، وكاد المشروع الصهيوني يخفق ويفشل ؛ لولا أن بريطانيا دخلت ، وضغطت على الزعماء العرب ، ليتدخلوا ويضغطوا على أبناء فلسطين أن يفكوا الإضراب ، ووعدوهم أنهم سيحلون مشكلتهم ، وفكّ الإضراب ؛ ولم تحل المشكلة ، ولم تزل المشكلة قائمة إلى اليوم ، لم تحل المشكلة ، بل تعقدت وتضاعف إثمها وخطرها ، حتى قامت دولة الكيان الصهيوني .

رأينا أيها الإخوة مدن فلسطين وهي تسقط مدينة مدينة ، كنا طلاباً ونبكي هذه المدن ، سلام عليك يا حيفا ، سلام عليك يا يافا ، سلام عليك يا عكا ، رأينا هذه المدن وهذه البلاد تسقط ، ولا نملك في ذلك الوقت إلا أن نسّير المظاهرات ، وننشد القصائد ، ونخطب الخطب النارية ، ونبعث بالمتطوعين . ذهب المتطوعون إلى فلسطين من أبناء الإسلام ؛ من مصر ، وسوريا ، وبلاد شتى ، ولو تركت الدول العربية الأمر للمتطوعين ، وأمدوهم بالسلاح وبالخبرات ، وبعض الضباط ، لكان الأمر غير ما نرى . ولكن للأسف دخلت الجيوش العربية السبعة ، وبعضها قاتل وأبلى بعض البلاء الحسن ، وبعضها كان قواده من الإنجليز وبعضها . . المهم أن الدولة التي رفضها الفلسطينيون ، ورفضها العرب في أول الأمر قامت ، قامت بمساعدة الإنجليز ثلاثين عاماً ، كانوا يحرمون على الفلسطيني أن يملك أدنى سلاح ، واليهود وعصاباتهم يجمعون السلاح ، ويحشدون السلاح من كل مكان ، ويقيمون المستوطنات ، مستوطنة بعد مستوطنة ، بعد أن كان اليهود أقل من القليل ، خمسة في المئة ،

ثم صاروا عشرة في المئة ، ثم صاروا أكثر وأكثر ، تكاثروا وتكاثروا ، وقامت هذه الدولة دولة إسرائيل .

كنا في ذلك الوقت نحن العرب نسميها : إسرائيل المزعومة ، كنت تقرأ في الصحف كلمة إسرائيل وبعدها (المزعومة) بين قوسين ، وتسمع في الإذاعات (إسرائيل المزعومة) ظللنا على ذلك عدة سنوات ، ثم خجلنا من أنفسنا وحذفنا هذه الكلمة ، كانت هذه المزعومة تضرب هذه الجبهة ، وتركل هذه الجبهة ، وتصفع هذه الجبهة ، ولا نملك نحن إلا الشجب والاستنكار ، والشكوى إلى مجلس الأمن ، مئات الشكاوي إلى مجلس الأمن ، تشكو من لا يشكيك ولا يسمع شكواك ، ولذلك استحيينا وخجلنا من أنفسنا فحذفنا كلمة (المزعومة) ، بعد أن أوشكنا أن نكون نحن المزعومين!

## الغرب سارع إلى الاعتراف بإسرائيل :

وفي وقت من الأوقات كان يمكن حتى بعد قيام إسرائيل أن ينتصر العرب عليها ، ولكن أيضاً بضغوط بريطانية وأمريكية ، بريطانيا هي التي خططت لقيام هذا الكيان ، وأمريكا هي التي اعترفت به بعد دقائق ، في اللحظة الأولى اعترفت أمريكا ، واعترفت بريطانيا ، واعترفت دول الغرب ، وقالت روسيا : خلقت إسرائيل لتبقى ، الكل اعترف بهذا الكيان ، ومع هذا كان يمكن الانتصار عليه في أول الأمر قبل أن تتمكن ولكن فرض الغرب أن يقبل العرب الهدنة التي عرفت بهدنة «رودس» وكانت فرصة لتلتقط إسرائيل أنفاسها ، وتعيد حساباتها ، وتجمع أسلحتها ، وترتب قوتها من جديد ، ويأتيها الضباط والجنود الذين كانوا يحاربون مع الحلفاء ، وهم بالألوف ، وكان هذا آخر فرصة للعرب في ذلك الوقت .

قامت إسرائيل منذ ذلك اليوم ، وكان العرب جميعاً يقولون : إن إسرائيل كيان غاصب ، أخذ أرضاً لا تحل له ، وشرد شعباً من دياره ، وشتته في الآفاق ، وإن إسرائيل قامت على باطل وظلم واغتصاب ؛ فلا بقاء لها في المنطقة ،

ولا بد لهذا الكيان المغتصب أن يزول ، ويعود الذين جاءوا من بلاد شتّى إلى بلادهم ، كانت هذه فلسفة العرب ، وسياسة العرب ؛ إلى ما سمي نكسة ١٩٦٧ حزيران يونيو ٦٧ ، فتغيرت فلسفة العرب ، وتغيرت سياسة العرب ، وأصبحت الأهداف تنحصر في هذا الهدف : (إزالة آثار العدوان) ، أي عدوان؟ عدوان ٥ يونيو ٦٧، أما عدوان سنة ٤٨، العدوان الذي اغتصب أرض فلسطين ، وأقام فيها الدولة الظالمة الباغية الطاغية الدخيلة ؛ فسكت عنه . كأن العدوان الجديد أضفى الشرعية على العدوان القديم ، هذا ما حدث ، لا نتكلم عن العدوانات القديمة ، وإنما على الأخير في ذلك الوقت : عدوان٦٧ ، على العرب أن يزيلوا آثار العدوان ، أما إسرائيل فقد أصبحت كياناً مشروعاً في نظر العرب ، وقادة العرب ، في ذلك الوقت . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، إن الذي يتنازل لا يقف عند حد ، إنه يتنازل اليوم عن شبر ، ثم يتنازل غداً عن ذراع ، ثم يتنازل غداً عن باع ، ثم يتنازل ويتنازل ، إلى أن لا يبقى له شيء ، حتى حدود ٦٧ لم يعودوا يعترفون بها ، لا يريدون أن يعطوا للفلسطينيين شيئاً يذكر ، يريد شارون أن يتخلص من متاعبه في غزة فينسحب منها ، أما الضفة الغربية ، فهي جزء من دولة إسرائيل في نظره ، دولة إسرائيل الكبرى ، هذه الدولة التي تمتد من الفرات إلى النيل ، وكما قال بعضهم : ومن الأرز إلى النخيل ، من الأرز في لبنان إلى النخيل في المملكة السعودية ، ولا تقولوا : هذه أحلام ، فقد كنا نقول عن إسرائيل في أول الأمر : هذه كلها أحلام ، ولن تستطيع أن تقيم جزيرة في بحر من العرب والمسلمين .

**من جرائم شارون :**

لقد أقامت دولتها ، وما دام العرب والمسلمون في هذه الغفلة ؛ فلن يقف شيء أمام ما تريده إسرائيل . وأكبر شاهد على هذا وأصدق دليل على ذلك : ما نراه اليوم ، وما رأيناه بالأمس ، وما نراه في كل يوم مما تصنعه إسرائيل .

إسرائيل تقتل ، وتدمر وتذبح ، تسفك الدم الحرام ، وتنتهك العرض الحرام ، وتدوس المقدسات ، وتجرف الأراضي ، وتقتلع أشجار الزيتون ، وتدمر البيوت على أهلها ، وتقتل النساء والأطفال والشيوخ ، هذا ما تفعله إسرائيل ، ما حدث في رفح بالأمس ، وما يحدث كل يوم ؛ وأين العرب؟ وأين المسلمون؟ وأين الأمم المتحدة؟ وأين مجلس الأمن؟ وأين الجامعة العربية؟ وأين منظمة المؤتمر الإسلامي؟ إنهم يصمتون صمت القبور! إن الشعوب العربية والإسلامية تتحرق للجهاد . والله! كلما ذهبت إلى بلد يقولون : نريد أن نقاتل لتحرير الأقصى ، لتحرير القدس ، لتحرير فلسطين ؛ أرض الإسراء والمعراج . ماذا نقول لهم؟ إنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً .

أحد الشباب هنا في قطر جاءني وقال : أريد أن أكون كتيبة لنذهب لتأييد الانتفاضة ، ونقاتل في فلسطين ، وهيأ الراية ، قلت له : ومن يسمح لك بذلك . قال سأكلم الأمير في قطر ، وأكلم السعودية وأكلم كذا ، قلت له : حتى لو سمحت لك قطر ، هل تسمح لك السعودية أن تدخل أرضها؟ هل تسمح لك الأردن أن تدخل أرضها رافعاً راية لا إله إلا الله محمدا رسول الله ، وحاملاً السيف والمدفع؟ هيهات هيهات ، للأسف لا تسمح دول الطوق لأحد بأن يقتحمها ويجتازها ، ويذهب إلى المقاتلة مع إخوانهم في فلسطين . وقد جرب الشاب حظه ، وعرف أن ما قلته هو الحق .

الجهاد أصبح فرض عين على الأمة . أهل فلسطين الجهاد فرض عين عليهم من أول الأمر ، ولكن إذا عجزوا فعلى من يليهم ، ثم على من يليهم ، ثم على من يليهم ، حتى يشمل الأمة كلها ، هذا هو حكم الفقه ، وحكم الشرع بإجماع الأمة ، فالجهاد أصبح واجباً على الأمة ، ولكن ماذا قدمت الأمة ، ونحن نرى كل يوم ما نرى؟

إننا نحيي إخوتنا في فلسطين ، نحيي هذه البطولة الفارعة الرائعة التي نراها كل يوم بأعيننا ، تقدم الشباب وتقدم الشيوخ ، رأينا الشيخ أحمد ياسين والرنتيسي ، والشباب الذين يقتلون كل يوم ، ونحيي شباب الجهاد ، وشباب كتائب الأقصى ؛ الذين عملوا عمليات نوعية أزعجت اليهود ، وجعلت لليهود

عند الفلسطينيين أشلاء يطلبونها ، اليهود حريصون على ضم أشلاء قتلاهم ، وعلى أسراهم ، والقتلى قبل الأسرى ؛ هذه نظريتهم ، أو عقيدتهم الدينية ، لا بد أن يدفنوا موتاهم بأيديهم .

**خاب فألك يا بوش :**

حيا الله هؤلاء الشباب في فلسطين ، وحيا الله إخوانهم في العراق ، حيا الله أبطال العراق ، كما حيا الله أبطال فلسطين . العراق التي كان بوش يظن أنها نزهة ، أن الجيوش ستذهب إليها في رحلة نزهة ، وأن الشعب العراقي سيقابلهم بالأحضان ، وسينثر عليهم الزهور والورود ، خاب فألك يا بوش ، لم تستقبل إلا بالرصاص في كل مكان ، الشعب العراقي يأبى الاحتلال ، ويرفض الاحتلال ، إنه شعب عريق ، شعب أبيّ ، شعب الحضارة منذ سبعة آلاف سنة ، هذا الشعب يرفض أن تداس كرامته ، يرفض أن تحتل أرضه ، يرفض أن يدنس عرضه ، ولذلك رفض الاحتلال ، وقاوم المقاومون ، قاوم الأبطال في الفلوجة ، وبغداد ، وبعقوبة ، ومدينة الصدر ، وغيرها ، قاوم هؤلاء جميعاً ، وقدموا أروع الأمثلة ، على أن إرادة الشعوب لا تقهر ، وأن عزيمة الجماهير لا تقتل ، وأن الشعب كما قال الشاعر :

**إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر**

**ولا بد لليل أن ينجلي ... ولا بد للقيد أن ينكسر**

لقد باء بوش بالخسران المبين ، باء بالخسران حينما لم يستجب له الشعب العراقي ؛ بل قاومه بما يستطيع من أسلحة يقدر عليها ، يعلن رفض الاحتلال ، وباء بالخسران مرة أخرى حينما ارتكب جنوده ما ارتكبوا من فظائع مروعة ، من شناعات يندى لها جبين الإنسان ، بوش الذي جاء ينشر الحضارة والحرية للشعب العراقي! جاء بهؤلاء الوحوش الذين ارتكبوا هذه الموبقات ، التي يستحي ويخجل الإنسان من مجرد النظر إليها .

أين الحضارة يا بوش؟ أين التحرير الذي جئت به لشعب العراق؟ جئت بالدمار والخراب لهذا الشعب ، وجئت بالخزي والنكال لشعبك الذي فعل هذه

الأفعال . يقولون إنها أحداث فردية ، هذا ما ظهر في الصحف ، وما ظهر في الإعلام ، وما خفي أعظم . هذه الأشياء التي ظهرت ، وليس كل من أخذ صورة بعث بها إلى الصحف ، وليست كل الحوادث أخذت لها صور ، فإذا كان هذا الذي أخذ فماذا حدث؟

الذي حدث شيء فظيع ، ولم يحدث للرجال فقط ، ولكن حدث للرجال والنساء ، ولكن المرأة العربية المسلمة يهون عليها أن تدفن في التراب ولا تتكلم بهذا الكلام ، وقد قالت إحدى النساء لأهلها وقبيلتها : اغسلوا عاركم ، اضربونا بالرصاص ، واقذفونا بالصواريخ ، لتغسلوا عاركم . هكذا قالت المرأة لأهلها .

**تنكيس الرؤوس واجب على بوش ومساعديه :**

إن بوش يجب أن ينكس رأسه ، ورامسفيلد الذي ذهب إلى العراق ليهنئ جنوده ، يجب أن ينكس رأسه ، يجب أن يشعر بالخزي أمام هذا العار الذي صنعوه ؛ جنود الحضارة ، جنود المدنية ، جنود التحرير ، يفعلون هذا ، إن الإسلام يأمر بالأسرى خيراً ، النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر وقد أسر سبعين منهم قال :« استوصوا بالأسرى خيرا[1] » فكان الآسرون يخصون الأسرى بأفضل الطعام ، يأخذون هم لأنفسهم الطعام الأدنى ، ويعطونهم الطعام الأفضل عملاً بوصية رسول الله ﷺ ، القرآن يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنفال:٧٠) يعني أمره أن يتلطف في الكلام معهم ، ويعدهم بالخير ويبشرهم إن أحسنوا نياتهم .

---

(١) جزء من حديث أبي عزيز ، وفيه يخبر أبو عزيز عن تفاعل الصحابة مع قول النبي ﷺ فيقول : كنت في نفر من الأنصار ، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم : أكلوا التمر ، وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ. رواه الطبراني في الكبير (٣٩٣/٢٢) عن أبي عزيز بن عمير (أخو مصعب) وفي الصغير (٢٥٠/١) وقال : لا يروى عن أبي عزيز إلا بهذا الإسناد ، تفرّد به محمد بن إسحاق ، وقال الهيثمي في المجمع : إسناده حسن (١١٥/٦) وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٨٣٢) .

هكذا كان الإسلام ، لم يرتكب المسلمون في فتوحاتهم التي شرقت وغربت أي موبقة من هذه الموبقات ، كلا والله ، لم يعتدوا على امرأة قط ، كانت النساء حينما تدخل الجيوش الإسلامية في المدن الكبرى ، يقفن في الشرفات يتفرجن على هؤلاء الفاتحين ؛ الذين لم يقف أمامهم أحد ، ما فكر فاتح مسلم أن يعتدي على امرأة ، وما كتب التاريخ ولا سجل التاريخ أي حادثة من هذه الحوادث ، هذه هي الحضارة ، هذه هي الإنسانية ، ولكننا نقول إن هذا نذير بأن هذا الاحتلال لن يدوم ، إن هذا نذير بأنه زائل إن شاء الله ، لأن الظلم والبغي والطغيان إذا تفاقم وتعاظم فإن سنة الله أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وقد قال ﷺ :« إن الله ليملي للظالم» يمهله «حتى إذا أخذه لم يفلته»[1] ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود:١٠٢) .

لن يضيع عند الله هؤلاء المظلومون ، هذه الدماء التي سفكت ، وهذه الأعراض التي هتكت ، وهذه الحرمات التي انتهكت ؛ لن تضيع ، لن يضيع دعاء المظلومين ، ولا دموع الباكين ، لن تضيع عند الله .

**لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم**

**تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم**

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (إبراهيم:٤٢) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ، وأن يجعل يومنا خيراً من أمسنا ، وغدنا خيراً من يومنا ، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها .

* * *

---

(١) متفق عليه عن أبي موسى الأشعري ، وقد سبق تخريجه .